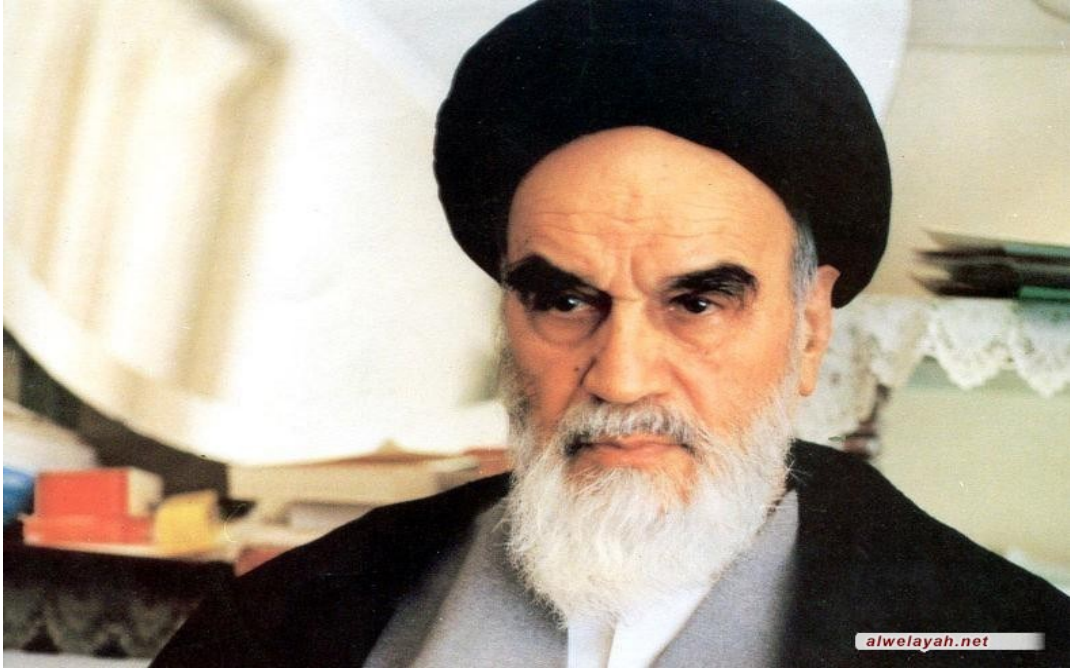


الأربعون حديثاً "للإمام الخميني (ره)" الحَدِيثُ الثَّانِي: الرِّياءُ



بِالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ عَنِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ،
عَنْ أَبِي الْمَغْرَاءِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ
رِيَاءٍ شِرْكٌ، إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كَأَن تَوَابُهُ عِلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ
كَأَن تَوَابُهُ عِلَى اللَّهِ» ([1]).

الشرح:

اعلم أن الرياء هو عبارة عن إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة أو العقائد
الحقة الصحيحة، للناس لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم والاشتهار بينهم بالصلاح والاستقامة والأمانة
والتدين، من دون أن تكون هناك نية إلهية صحيحة. وهذا الأمر يتحقق في عدة مقامات.

المقام الأول: وله درجتان:

الأولى: وهي أن يظهر العقائد الحقة والمعارف الإلهية، من أجل أن يشتهر بين الناس بالديانة، ومن أجل الحصول على منزلة في القلوب، كأن يقول: «إني لا أعتبر أن هناك مؤثرا في الوجود إلا الله»، أو أن يقول: «إني لا أتوكل على أحد سوى الله» أو أن يثني على نفسه كناية أو إشارة بامتلاك العقائد الحقة، وهذا الأسلوب هو الأكثر رواجاً. فمثلاً عندما يجري حديث عن التوكل أو الرضا بقضاء الله، يجعل الشخص المرآة في نفسه في سلك أولئك الجمع بواسطة تأوّه أو هزّ رأسه.

الثانية: وهي أن يبعد عن نفسه العقائد الباطلة وينزه نفسه عنها، لأجل الحصول على الجاه والمنزلة في القلوب، سواء أكان ذلك بصراحة القول أم بالإشارة والكتابة.

المقام الثاني: وفيه أيضاً مرتبتان:

إحدهما: أن يظهر الخصال الحميدة والملكات الفاضلة، والأخرى: أن

يتبرأ مما يقابلها، وأن يركب نفسه للغاية نفسها التي أصبحت معلومة.

المقام الثالث: وهو الرياء المعروف عند الفقهاء الماضين - رضوان الله عليهم - وله أيضاً نفس تلكما الدرجتين، إحدهما: أن يأتي بالأعمال والعبادات الشرعية، أو أن يأتي بالأمور الراجحة عقلاً، بهدف مراعاة الناس وجلب القلوب، سواء أن يأتي بالعمل نفسه بقصد الرياء، وبكيفيته، أو شرطه أو جزئه بقصد الرياء على الشكل المذكور في الكتب الفقهية. ثانيهما: أن يترك عملاً محرماً أو مكروهاً بنفس الهدف المذكور.

ونحن نشرح في هذه الأوراق، بعضاً من مفاصل كل واحد من هذه المقامات الثلاثة ونشير إلى ما يبدو علاجاً لها على نحو الاختصار.

المقام الأول: الرياء

وفيه عدة فصول

فصل:

اعلم أن الرياء في أصول العقائد والمعارف الإلهية أشد من جميع أنواع الرياء عذاباً وأسوأها عاقبة، وظلمته أعظم وأشد من ظلمات جميع أنواع الرياء. وصاحب هذا العمل إذا كان في واقعه لا يعتقد بالأمر الذي يظهره، فهو من المنافقين، أي أنه مخلص في النار، وأن هلاكه أبدي، وعذابه أشد العذاب.

وأما إذا كان معتقداً بما يظهر، لكنه يظهر من أجل الحصول على المنزلة والرتبة في قلوب الناس، فهذا الشخص وإن لم يكن منافقاً إلا أن رياءه يودي إلى اضمحلال نور الإيمان في قلبه، ودخول ظلمة الكفر إلى قلبه، فإن هذا الشخص يكون مشركاً في الخفاء، لأن المعارف الإلهية والعقائد الحقة، التي يجب أن تكون خالصة، ولصاحب تلك الذات المقدسة، قد حولها - المرائي - إلى الناس، وأشرك فيها غيره، وجعل الشيطان متصرفاً فيه، فهذا القلب ليس.

ونحن سنذكر في أحد الفصول؛ أن الإيمان من الأعمال القلبية، وليس هو مجرد علم، وقد جاء في الحديث الشريف: «كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ».

ولكن هذه الفجيرة الموبقة، وهذه السريرة المظلمة، وهذه الملكة الخبيثة، تؤدي بالإنسان في النهاية، إلى أن تصبح دار قلبه مختصة بغيره، وتؤدي ظلمة هذه الرذيلة بالإنسان تدريجياً إلى الخروج من هذه الدنيا بدون إيمان.

وهذا الإيمان الذي يمتلكه هو صورة بلا معنى، وجسد بلا روح، وقشر بلا لب، ولا يكون مقبولاً عند الله تعالى، كما أشير إليه في حديث مذكور في كتاب الكافي، عن علي بن سالم، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ شَرْيْكَاً مَنِ اسْتَشْرَكَ مَعِيَ غَيْرِي فِي عَمَلٍ عَمَلَهُ لَمْ أَقْبَلْهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصاً» ([2]).

وبديهي أن الأعمال القلبية في حال عدم خلوصها لا تصبح مورداً لتوجه الحق تعالى ولا يتقبلها بل يوكلها إلى الشريك الآخر، الذي كان يعمل له ذلك الشخص مراعاة. إذاً فالأعمال القلبية تصبح مختصة بذلك الشخص، وتخرج من حد الشرك، وتدخل إلى الكفر المحض. بل ويمكن القول إن هذا الشخص هو من جملة المنافقين. وكما أن شركه خفي فنفاقه خفي أيضاً، فهذا المسكين يتصور أنه مؤمن ولكنه مشرك منذ البداية، وفي النتيجة هو منافق. وعليه أن يذوق عذاب المنافقين، ويول للذي ينتهي عمله إلى النفاق.

فصل: في بيان أن العلم يغير الإيمان

اعلم أن الإيمان غير العلم باﻻﻟﻮﻫﻴﺎﺓ وﻭﺣﺪﺎﻧﻴﺘﻪ ﻭﺳﺎﺋﺮ ﺍﻟﺼﻔﺎﺕ ﺍﻟﻜﻤﺎﻟﻴﺔ ﺍﻟﺜﺒﻮﺗﻴﺔ ﻭﺍﻟﺠﻼﻟﻴﺔ ﺍﻟﺴﻠﺒﻴﺔ،
ﻭﺍﻟﻌﻠﻢ ﺑﺎﻟﻤﻼﺋﻜﺔ ﻭﺍﻟﺮﺳﻞ ﻭﺍﻟﻜﺘﺐ ﻭﻳﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ. ﻭﻣﺎ ﺃﻛﺜﺮ ﻣﻦ ﻳﻜﻮﻥ ﻟﻪ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﻭﻟﻜﻨﻪ ﻟﻴﺲ ﺑﻤﻮﺃﻣﻦ.
ﺍﻟﺸﻴﻄﺎﻥ ﻋﺎﻟﻢ ﺑﺠﻤﻴﻊ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﻤﺮﺍﺗﺐ ﺑﻘﺪﺭ ﻋﻠﻤﻨﺎ ﻭﻋﻠﻤﻜﻢ، ﻭﻟﻜﻨﻪ ﻛﺎﻓﺮ. ﺑﻞ ﺇﻥ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻋﻤﻞ ﻗﻠﺒﻲ، ﻭﻣﺎ ﻟﻢ
ﻳﻜﻦ ﺫﻟﻚ ﻓﻠﻴﺲ

ﻫﻨﺎﻙ ﺇﻳﻤﺎﻥ. ﻓﻌﻠﻰ ﺍﻟﺸﺨﺺ ﺍﻟﺬﻯ ﻋﻠﻢ ﺑﺸﻴﺌﺔ ﻋﻦ ﻃﺮﻳﻖ ﺍﻟﺪﻟﻴﻞ ﺍﻟﻌﻘﻠﻲ ﺍﻭ ﺯﺭﻭﺭﻳﺎﺕ ﺍﻟﺪﻳﺎﻥ، ﺃﻥ ﻳﺴﻼﻡ ﻟﺬﻟﻚ
ﻗﻠﺒﻪ ﺃﻳﺸﺎً، ﻭﻻﻥ ﻳﻮﺩﻯ ﺍﻟﻌﻤﻞ ﺍﻟﻘﻠﺒﻲ ﺍﻟﺬﻯ ﻫﻮ ﻧﺤﻮ ﻣﻦ ﺍﻟﺘﺴﻠﻴﻢ ﻭﺍﻟﺨﺴﻮﻉ، ﻭﻧﻮﻉ ﻣﻦ ﺍﻟﺘﻘﻴﻞ ﻭﺍﻟﺴﺘﺴﻼﻡ –
ﻋﻠﻴﻪ ﺃﻥ ﻳﻮﺩﻯ ﺫﻟﻚ – ﻟﻜﻲ ﻳﺼﺒﺢ ﻣﻮﺃﻣﻨﺎً.

ﻭﻛﻤﺎﻝ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻫﻮ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ. ﻓﺈﺫﺍ ﻗﻮﻱ ﻧﻮﺭ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﺗﺒﻌﻪ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻓﻲ ﺍﻟﻘﻠﺐ، ﻭﺟﻤﻴﻊ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻫﻲ
ﻏﻴﺮ ﺍﻟﻌﻠﻢ. ﻓﻤﻦ ﺍﻟﻤﻤﻜﻦ ﺃﻥ ﻳﺪﺭﻙ ﺍﻟﻌﻘﻞ ﺑﺎﻟﺪﻟﻴﻞ ﺷﻴﺌﺎ ﻟﻜﻦ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﻟﻢ ﻳﺴﻞﻡ ﺑﻌﺪ، ﻓﻴﻜﻮﻥ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﺑﻼ ﻓﺎﺋﺪﺓ.
ﻣﺜﻼً ﺃﻧﺘﻢ ﺍﺩﺭﻛﺘﻤﺒﻌﻮﻟﻜﻢ ﺃﻥ ﺍﻟﻤﻴﺖ ﻻ ﻳﺴﺘﻄﻴﻊ ﺃﻥ ﻳﺰﺭﺏ ﺃﺣﺪﺎً، ﻭﺃﻥ ﺟﻤﻴﻊ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻓﻲ ﺍﻟﻌﺎﻟﻢ ﻟﻴﺲ ﻟﻬﻢ ﺣﺲ
ﻭﻻ ﺣﺮﻛﺔ ﺑﻘﺪﺭ ﺯﺑﺎﺑﺔ، ﻭﺃﻥ ﺟﻤﻴﻊ ﺍﻟﻘﻮﻱ ﺍﻟﺠﺴﺎﻣﻴﺔ ﻭﺍﻟﻨﻔﺴﺎﻧﻴﺔ ﻗﺪ ﻓﺎﺭﻗﺘﻪ ﻭﻟﻜﻦ ﺣﻴﺚ ﺃﻥ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﻟﻢ ﻳﺘﻘﺒﻞ
ﻫﺬﺍ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻭﻟﻢ ﻳﺴﻞﻡ ﺃﻣﺮﻩ ﻟﻠﻌﻘﻞ، ﻓﺈﻧﻜﻢ ﻻ ﺗﻘﺪﺭﻭﻥ ﻋﻠﻰ ﻣﺒﻴﺖ ﻟﻴﻠﺔ ﻣﻈﻠﻤﺔ ﻭﺍﺣﺪﺓ ﻣﻊ ﻣﻴﺖ!!

ﻭﺃﻣﺎ ﺇﺫﺍ ﺳﻼﻡ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﺃﻣﺮﻩ ﻟﻠﻌﻘﻞ، ﻭﺗﻘﺒﻞ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﺤﻜﻢ ﻣﻨﻪ، ﻓﻠﻦ ﻳﻜﻮﻥ ﻓﻲ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻌﻤﻞ – ﺃﻱ ﺍﻟﻤﺒﻴﺖ ﻣﻊ
ﺍﻟﻤﻴﺖ – ﺃﻱ ﺇﺷﻜﺎﻝ ﺑﺎﻟﻨﺴﺒﺔ ﺇﻟﻴﻜﻢ، ﻛﻤﺎ ﺃﻧﻪ ﻭﺑﻌﺪ ﻋﺪﺓ ﻣﺮﺍﺕ ﻣﻦ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ، ﻳﺼﺒﺢ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﻣﺴﻼﻣﺎً، ﻓﻠﻦ
ﻳﺒﻘﻰ ﻋﻨﺪﻩ ﺑﻌﺪﻫﺎ ﺑﺎﺱ ﺍﻭ ﺧﻮﻑ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻴﺖ.

ﺇﺫﺍ؛ ﺃﺼﺒﺢ ﻣﻌﻠﻮﻣﺎً ﺃﻥ ﺍﻟﺘﺴﻠﻴﻢ – ﻭﻫﻮ ﻣﻦ ﺣﻈﺔ ﺍﻟﻘﻠﺐ – ﻏﻴﺮ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﺍﻟﺬﻯ ﻫﻮ ﻣﻦ ﺣﻈﺔ ﺍﻟﻌﻘﻞ.

ﻭﻣﻦ ﺍﻟﻤﻤﻜﻦ ﺃﻥ ﻳﺒﺮﻫﻦ ﺇﻧﺴﺎﻥ ﺑﺎﻟﺪﻟﻴﻞ ﺍﻟﻌﻘﻠﻲ، ﻋﻠﻰ ﻭﺟﻮﺩ ﺍﻟﺨﺎﻟﻖ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻭﺍﻟﺘﻮﺣﻴﺪ ﻭﺍﻟﻤﻌﺎﺩ ﻭﺑﺎﻗﻲ
ﺍﻟﻌﻘﺎﺋﺪ ﺍﻟﺤﻘﺔ ﻭﻟﻜﻦ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﻌﻘﺎﺋﺪ ﻻ ﺗﺴﻤﻰ ﺇﻳﻤﺎﻧﺎ، ﻭﻻ ﺗﺠﻌﻞ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ ﻣﻮﺃﻣﻨﺎ، ﻭﺇﻧﻤﺎ ﻫﻮ ﻣﻦ ﺟﻤﻠﺔ ﺍﻟﻜﻔﺎﺭ
ﺍﻭ ﺍﻟﻤﻨﺎﻓﻘﻴﻦ ﺍﻭ ﺍﻟﻤﺸﺮﻛﻴﻦ. ﻓﺎﻟﻴﻮﻡ ﺍﻟﻌﻴﻮﻥ ﻣﻐﺸﺎﺓ، ﻭﺍﻟﺒﺴﻴﺮﺓ ﺍﻟﻤﻠﻜﻮﺗﻴﺔ ﻏﻴﺮ ﻣﻮﺟﻮﺩﺓ، ﻭﺍﻟﻌﻴﻦ
ﺍﻟﻤﻠﻜﻴﺔ ﻻ ﺗﻮﺩﺭﻙ، ﻭﻟﻜﻦ ﻋﻨﺪ ﻛﺸﻒ ﺍﻟﺴﺮﺍﺋﺮ، ﻭﻇﻮﻫﻮﺭ ﺍﻟﺴﻠﻄﺔ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺔ ﺍﻟﺤﻘﺔ، ﻭﺧﺮﺍﺏ ﺍﻟﻄﺒﻴﻌﺔ ﻭﺍﻧﺠﻼﺀ
ﺍﻟﺤﻘﻴﻘﺔ، ﺳﻴﻌﺮﻑ ﻭﻳﻠﺘﻔﺖ ﺑﺎﻥ ﺍﻟﻜﺘﻴﺮﻳﻦ ﻟﻢ ﻳﻜﻮﻧﻮﺍ ﻣﻮﺃﻣﻨﻴﻦ ﺑﺎﻻﻟﻮﻫﻴﺎﺓ، ﻭﺃﻥ ﺣﻜﻢ ﺍﻟﻌﻘﻞ ﻟﻢ ﻳﻜﻦ ﻣﺮﺗﺒﻄﺎ
ﺑﺎﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ، ﻓﻤﺎ ﻟﻢ ﺗﻜﺘﺐ ﻋﺒﺎﺭﺓ «ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﺍﻻﻟﻮﻫﻴﺎﺓ» ﺑﻘﻠﻢ ﺍﻟﻌﻘﻞ ﻋﻠﻰ ﻟﻮﺡ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﺍﻟﺼﺎﻓﻲ ﻟﻦ ﻳﻜﻮﻥ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺎﺕ
ﺑﻮﺣﺪﺍﻧﻴﺔ ﺍﻻﻟﻮﻫﻴﺎﺓ.

ﻭﻋﻨﺪﻣﺎ ﺗﺮﺩ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﻌﺒﺎﺭﺓ ﺍﻟﻨﻮﺭﺍﻧﻴﺔ ﺍﻟﺒﺘﻮﺍﻧﻴﺔ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻘﻠﺐ، ﺗﺴﺒﺢ ﺍﻟﻘﻠﺐ ﻟﺬﺍﺕ ﺍﻟﺤﻘﺔ ﺗﻌﺎﻟﻰ، ﻓﻼ ﻳﻌﺮﻑ

الإنسان بعدها شخصا آخر مؤثرا في مملكة الحق، ولا يتوقع من شخص آخر جاها ولا جلالاته، ولا يبحث عن المنزلة والشهرة عند الآخرين.

ولا يصبح القلب مرائيا ولا مخادعا حينئذ. وإذا رأيتم رياء في قلوبكم، فاعلموا أن قلوبكم لم تسلّم للعقل، وأن الإيمان لم يقذف نوره فيها، وأنكم تعدون شخصا آخر إلها ومؤثرا في هذا العال، لا الحق تعالى، وأنكم في زمرة المنافقين أو المشركين أو الكفار.

فصل: في وخامة أمر الرياء

تأمل أيها الشخص المرائي... يا من أودعت العقائد الحقة والمعارف الإلهية بيد عدو الله، وهو الشيطان، وأعطيت ما هو مخصص بالحق تعالى للآخرين، وبدلت تلك الأنوار التي تضيء الروح والقلب وهي رأسمال النجاة والسعادة الأبدية ومنبع اللقاء الإلهي وبذرة القرب من المحبوب أبدلتها بظلمات موحشة وشقاء أبدي وجعلتها رأسمال البُعد والابتعاد عن ساحة المحبوب المقدسة، والابتعاد عن لقاء الله تعالى.

تهياً، أيها المرائي، للظلمات التي لا نور بعدها، وللشدائد التي لا فرج لها، وللأمراض التي لا يرجى شفاؤها، وللموت الذي لا حياة معه، وللنار تخرج من باطن القلب فتحرق ملكوت النفس وملك البدن حرقاً لم يخطر على قلبي وقلبك، والتي يخبرنا عنها الله تعالى في كتابه المنزل في الآية الشريفة {نَارُ اللّٰهِ الّٰلْوَقْدَةُ}، الّٰلّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآلَمِينَ [3]. حيث تحدثت عن نار الله، هذه النار التي تتسلط على القلوب فتحرقها، وليست هناك نار تحرق سوى النار الإلهية فإذا فقدت فطرة التوحيد - وهي فطرة الله - وحلّ محلها الشرك والكفر، حينئذ لن تكون شفاعة الشافعين من نصيب الإنسان بل يخلد الإنسان في العذاب، وما أدراك ما العذاب؟ إنه العذاب الذي ينبعث عن الغضب الإلهي.

إذاً أيها العزيز... من أجل خيال باطل ومحبوبة بسيطة في أعين العباد الضعاف، ومن أجل جذب قلوب الناس المساكين، لا تعرض نفسك للغضب الإلهي، ولا تبع ذلك الحب الإلهي وتلك الكرامات غير المحدودة، وتلك الألفاظ والعنايات الربانية، لا تبعها بمحبة بسيطة عند مخلوق ليس له أثر، ولا تكسب منه أيّة ثمرة سوى الندامة والحسرة، عندما تقصر يداك عن هذا العالم - وهو عالم الكسب - وعندما ينقطع عملك، وليس للندم حينئذ نتيجة ولا للإنابة من فائدة.

فصل: تنبيه علمي لاستئصال جذور الرياء

نذكر هنا أمراً نأمل أن يكون مؤثراً في علاج هذا المرض القلبي سواء في هذا المقام أو المقامات الأخرى، وهذا الأمر مطابق للبرهان – الدليل – والمكاشفة والعيان وأخبار المعصومين وكتاب الله، وللعقل حيث يصدق عقول الناس.

وهو أنه نتيجة لإحاطة قدرة الله تبارك وتعالى بجميع الموجودات، وبسطة لسلطانه على جميع الكائنات، وإحاطة قيمومته بجميع الممكنات، فإن قلوب العباد جميعاً تكون تحت تصرفه وبيد قدرته وفي قبضة سلطانه، ولا يتصرف – ولن يتصرف – أحد في قلوب العباد بدون أذنه القيومي وإجازته التكوينية. وحتى أصحاب القلوب أنفسهم ليست لهم القدرة على التصرف في قلوبهم بدون إذن من الله تعالى. وبهذا المعنى وردت كلمات، إشارة وكناية وصراحة في القرآن وفي أخبار أهل البيت «عليهم السلام».

إذاً، فالله تعالى هو مالك القلب والتمتص في فيه وأما العبد الضعيف العاجز فلا يستطيع أن يتصرف بقلبه بدون إذنه، بل إن إرادته قاهر لإرادتك ولإرادة جميع الموجودات. إذن فرباؤك وتملكك، إذا كنا لأجل جذب قلوب العباد، ولفت نظرهم، ومن أجل الحصول على المنزلة والتقدير في القلوب والاشتهار بالصلاح، فإن ذلك خارج كلية عن تصرفك، وهو تصرف الله، فإنه القلوب وصاحبها يوجه القلوب نحو من يشاء بل من الممكن أن تحصل على نتيجة عكسية. وقد رأينا وسمعنا أن أشخاصاً متملقين ومناققين ممن لم تكن لهم قلوب طاهرة، قد افتضحوا وبان زيفهم ففرض عليهم عكس ما أرادوا الحصول عليه من النتائج في نهاية

الأمر. لقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في الحديث الشريف في الكافي: «عن جرّاح المَدائني، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: {فَمَنْ كَانَتْ يَدَاكَ لِيقْتُلُوا رَبَّهُمْ فَلَا يَعْزِمُكَ عَلَيْهِمْ}» قال عليه السلام: الرَّجُلُ يَعْمَلُ شَيْئاً مِنْ الثُّبُوبِ لَا يَطْلُبُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِنَّهُمَا يَطْلُبُ تَزَكِيَةَ النَّاسِ يَشْتَهِي أَنْ يَسْمَعَ بِهِ النَّاسُ فَهَذَا الَّذِي أَشْرَكَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ. ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَسْرَّ خَيْراً فَذَهَبَتْ أَيَّامُهُ أَبَدًا حَتَّى يُظَاهِرَ اللَّهُ خَيْراً، وَمَا مِنْ عَبْدٍ أَسْرَّ شَرًّا فَذَهَبَتْ أَيَّامُهُ أَبَدًا حَتَّى يُظَاهِرَ اللَّهُ شَرًّا» ([5]).

إذاً أيها العزيز، أطلب السمعة والذكر الحسن من الله، التمس قلوب الناس من مالك القلوب، أعمل أنت وحده فستجد أن الله تعالى – فضلاً عن الكرامات الأخروية ونعم ذلك العالم – سيتفضل عليك في هذا العالم نفسه بكرامات عديدة، فيجعلك محبوباً، ويعظم مكانتك في القلوب، ويجعلك مرفوع الرأس – وجيهاً – في كلتا الدارين. ولكن إذا استطعت فخلص قلبك بصورة كاملة بالمجاهدة والمشقة، من هذا

الحب أيضاً، وطهر باطنك، كي يكون العمل خالصاً من هذه الجهة، ويتوجه القلب إلى الله فقط حتى تطهر الروح، وتزول أدران النفس. فأيّة فائدة تجني من حب الناس الضعاف لك، أو بغضهم، أو من الشهرة والصيت عند العباد وهم لا يملكون شيئاً من دون الله تعالى؟ وحتى لو كانت له فائدة – على سبيل الفرص – فإنما هي فائدة تافهة ولأيام معدودات، ومن الممكن أن يسوق هذا الحب عاقبة عمل الإنسان إلى الرياء، وأن يجعل الإنسان – لا سمح الله – مشركاً ومناقفاً وكافراً. وأنه إذا لم يفتضح في هذا العالم، فسيفتح في ذلك العالم في محضر العدل الرباني، عند عباد الله الصالحين وأنبيائه العظام وملائكته المقربين، ويهان ويصبح مسكيناً. إنها فضيحة ذلك اليوم، وما أدراك ما تلك الفضيحة، والله يعلم أي ظلمات تلي تلك المهانة في ذلك المحضر! إن ذلك اليوم – كما يقول الله تعالى في كتابه – يتمنى الكافر فيه قائلاً: {يَا لَيْتَنِي تَدْرِي كُنْتُ تُرَابًا} [6]..، ولكن لا جدوى لهذا التمني.

أيها المسكين، إنك ولأجل محبة بسيطة، جزئية، ومنزلة عديمة الفائدة بين العباد، تجاوزت تلك الكرامات وفقدت رضا الله، وعرضت نفسك لغضب الله.

لقد استبدلت الأعمال التي كان ينبغي أن تهئ بها دار الكرامة في الآخرة، وتوفر الحياة السعيدة الدائمة وتصل بواسطتها إلى أعلى عليين في الجنان استبدلتها بظلمات الشرك والنفاق وأعدت لنفسك الحسرة والندامة والعذاب الشديد، وجعلت نفسك من أهل «سجّين»، بالصورة التي وردت في الحديث الشريف في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْمَلَكَ لَيَمْعَدُ يَرَعَمَل الْعَبْدَ مُبْتَدِهَجًا بِهِ فَإِذَا صَعَدَ بِحَسَنَاتِهِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، اجْعَلُوهُمَا فِي سَجّين، إِنَّهُ لَيَسَّ إِيَّايَ أَرَادَ بِهِمَا» [7].

إننا هنا وفي هذا الحال، لا نستطيع أن نتصور «سجين» ولا أن نفهم ديوان، عمل «الفجّار»، ولا أن نرى صور هذه الأعمال وهي في سجين.. وسنرى حقيقة الأمر في أحد الأيام ولكن عندها تقصر أيدينا عن العمل ولا سبيل حينئذ للنجاة.

أيها العزيز..! استيقظ وأبعد عنك الغفلة والسكره ووزن أعمالك بميزان العقل قبل أن توزن في ذلك العالم، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب، وأجلّ مرآة القلب من الشرك والنفاق والتلوّن، ولا تدع صدأ الشرك والكفر يحيط به بمستوى لا يمكن جلاؤه حتى بنيران ذلك العالم، لا تدع نور الفطرة يتبدل بظلمة الكفر، لا تدع هذه الآية {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..} [8].. أن تصيغ لا تخنّ هذه الأمانة الإلهية بهذا النحو، نطف مرآة قلبك لكي يتجلّى فيها نور جمال الحق فيغنيك عن

العالم وكل ما فيه. ولكي تتوهج نار الحب - العشق - الإلهي في قلبك، فتحرق الأنواع الأخرى من الحب، ولا تستبدل حينذاك جميع هذا العالم بلحظة واحدة من الحب الإلهي، ولكن تحصل على لذة في مناجاة الله وذكره، تعتبر غيرها من جميع اللذات الحيوانية، لعباً ولهواً. وإذا لم تكن من أهل هذه العوالم، وترى هذه المعاني غريبة وعجيبة لديك فأياك أن تضع تلك النعم الإلهية في العالم الآخر المذكورة في القرآن المجيد وأخبار المعصومين عليهم السلام وتخسرهما من أجل جذب قلوب المخلوقين... لا تُضيّع كل هذا الثواب من أجل شهرة وهمية في أيام معدودات، لا تحرم نفسك من كل هذه الكرامات، لا تبع السعادة الأبدية بالشقاء الدائم.

فصل: في الدعوة إلى الإخلاص

إعلم أن مالك الملوك الحقيقي وولي النعمة الواقعي، الذي تفضل علينا بكل هذه الكرامات، وهياً لنا كل هذه النعم، قبل المجيء إلى هذا العالم، من الغذاء الطيب ذي المواد النافعة المناسبة لمعدتنا الضعيفة، ومن المربي الخادم بلا منة بل بفعل الحب الفطري الذاتي. وهياً لنا البيئة والهواء المناسبين وباقي النعم العظيمة الظاهرة والباطنة. كما أعدّ لنا الكثير في العالم الآخر وفي البرزخ قبل ذهابنا إلى هناك، هذا المتفضل قد طلب منا قائلاً:

«أخلص قلبك لي ولأجل كرامتي، كي تحصل أنت على النتيجة، وتحصل أنت على الفائدة» ومع ذلك لا يلقى منا أدناً صاغية بل يرى التمرد والسير على خلاف رضاه، فأى ظلم عظيم نكون قد اجترحناه بذلك؟! وأي مالك الملوك نحارب؟! ونتيجة ذلك كله تكون وبالاً علينا نحن، أما الله تعالى فلا يصاب سلطانه بضرر ولا ينقص من ملكه شيء ولا نخرج من سلطنته وسلطات، حتى إذا كنا مشتركين لأننا ألحقنا الضرر بأنفسنا، {... فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [9]. فهو غني عن عبادتنا وإخلاصنا وعبوديتنا، ولا يؤثر تمرّدنا وشركنا وابتعادنا عنه شيئاً في مملكته، وحيث أنه أرحم الراحمين فقد اقتضت رحمته الواسعة وحكمته البالغة أن يعرض لنا طريق الهداية وسبيل الخير والشر والحسن والقبح ويدلنا على زلات طريق الإنسانية، ومزالق طريق السعادة، والله تعالى في هذه الهداية والإرشاد بل في هذه العبادات والإخلاص والعبودية، له سبحانه علينا ممن عظمة وجسيمة بحيث لا يمكن أن نفهمها ما لم تفتح عين البصيرة والبرزخية التي ترى الواقع، وما دما في هذا العالم الضيق والمظلم، وفي ظلام الطبيعة، وما دما مقيدين بسلاسل الزمان، معتقلين في هذا المكان السجن المظلم فإننا لا ندرك ممن الله العظيمة علينا، ونتخيل بأن نعم الله علينا تتلخص في هذا الإخلاص وهذه العبادة، وفي ذلك الإرشاد وتلك الهداية فحسب.

لا تتوهم أبدا أن لنا المنة على الأنبياء العظام والأولياء الكرام على علماء الأمة وهم الأدلاء إلى سعادتنا ونجاتنا، والذين أنقذونا من الجهل والظلمة والشقاء، أخذونا إلى عالم النور والسرور والبهجة والعظمة والذين تحملوا ولا يتحملون كل هذه المشاق والمصاعب من أجل تربيتنا وإنقاذنا من تلك الظلمات التي تلازم الاعتقادات الباطلة، ومن الجهل المركب بكل أشكاله، ومن أنواع الضغوطات والعذاب الذي هو صورة الملكات والأخلاق الرذيلة، ومن تلك الصور الموحشة والمرعبة التي هي ملكوت أعمالنا وأفعالنا القبيحة – وكذلك – لأجل إيصالنا إلى تلك الأنوار وأنواع البهجة والسرور والراحة والأنس والنعيم والحرور والقصور التي لا نقدر أن نتصورها، حيث أن عالم الملك هذا مع كل ما له من عظمة، أضيّق من أن يحتوي على واحدة من حُلل الجنة، وأن أعيننا لا تطيق رؤية شعرة واحدة من شعر حور العين، وتكون كل هذه المثوبات صوراً ملكوتية لتلك العقائد والأعمال والتي أدركها الأنبياء العظام، خصوصا صاحب الكشف الكلي والكتاب الجامع خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم، أدركوها بالوحي الإلهي ورأوها وسمعوها ودعونا إليها. ونحن المساكين كالأطفال، المتمردين على حكم العقلاء بل المخطئين لهم، قد واجهناهم دائما بالعناد والمحاربة والانفصال، ولكن تلك النفوس الزكية والأرواح الطيبة الطاهرة – الأنبياء – بما يكمن فيهم من الرأفة والرحمة بعبادة الله، لم يقصروا أبدا في دعوتهم، على الرغم من جهلنا وعنادنا، بل ساقونا نحو الجنة والسعادة بكل ما يملكون من القوة وأساليب الدعوة أن ينتظروا منا جزاءً ولا شكورا.

وحتى عندنا يحدد الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أجره بـ «المودّة» في القرآن بـ «...»، فإن صورة هذه المودة في العالم الآخر قد تكون بالنسبة إلينا أعظم الصور نورا وعطاءا. وهذا هو أيضا من أجلنا نحن ومن أجل وصولنا إلى السعادة

والرحمة. إذاً، فأجر الرسالة عائد إلينا أيضا، ونحن الذين ننتفع به، فأية منّة لنا نحن المساكين عليهم؟!... وأية فائدة تعود عليهم – سلام الله عليهم – من إخلاننا لهم وتعلقنا بهم؟!... أية منّة لكم ولنا على علماء الأمة؟ بدءاً من ذلك العالم الذي يوضح ويبين لنا الأحكام الشرعية، إلى النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم وإلى ذات الله المقدسة جلّ جلاله فإن لكل منهم حسب درجته ومقامه من حيث إرشادهم لنا إلى طريق الهداية منّا لا نستطيع مكافأتهم عليها في هذا العالم، فهذا العالم لا يليق بجزائهم... {فَلَا لِيَّاهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَوْلِيَآئِهِ الْمُنَّةُ} وكما يقول تعالى: {... قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْـَٔلَآءَ مَكِّمْ بَلْ لِلَّهِ يُمَنُّ عَالِيَكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِ بِمَا تَعْمَلُونَ} ([10]). إذاً، فإن كذباً صادقين في ادعاء الإيمان، فإن المنّة علينا في هذا الإيمان نفسه. فإن بصير وعالم بالغيب، وهو يعلم ماهية صور أعمالنا، وكيفية صورة إيماننا وإسلامنا

في عالم الغيب. أما نحن المساكين حيث لا نعرف الحقيقة، فإننا نتعلم العلم من العالم ونمنّ عليه، ونصلّي جماعة مع العالم ونمنّ عليه، مع أن لهم المنة علينا ونحن لا نعلم. بل وإن هذه المنة التي نمنّ بها عليهم هي التي تحبط أعمالنا وتجربها إلى «سجين»، وتذروها في الهواء لكي تفني وتذهب.

المقام الثاني: الرياء

وفي فصلان:

الفصل الأول: الرياء في العمل

اعلم أن الرياء في هذا المقام، وإن لم يكن بحجم المقام الأول – من الدفع نحو الكفر – إلا أنه، بعد الالتفات إلى موضوعه، قد يفضي بعمل المرائي أيضا في هذا المقام (العمل) إلى الكفر فيصبح واحدا في النتيجة مع عمل المرائي في ذلك المقام: مقام الرياء في العقيدة.

لقد أوضحنا في شرح الحديث السابق، أنه يمكن أن تكون للإنسان في عالم الملكوت صورة تغاير الصورة الإنسانية، وأن تلك الصور تتبع ملكوت النفس وملكاتها، فإذا كنتم ذوي ملكات فاضلة إنسانية، فستجعل هذه الملكات صوركم، إنسانية عندنا يحشر الإنسان ومعه تلك الملكات ما لم تخرج عن طريق الاعتدال، بل إن الملكات إنما تكون فاضلة حين لا تتصرف النفس الأمارة بالسوء فيها، ولا يكون لخطوات النفس دور في تشكيلها.

يقول أستاذنا الشيخ محمد علي الشاه آبادي دام ظله: «إن المعيار في الرياضة الباطلة والرياضة الشرعية الصحيحة هو خلى النفس وخطى الحق، فإذا كان تحرك السالك بخطى النفس وكانت رياضته من أجل الحصول على قوى النفس وقدرتها وتسلطها، كانت رياضته باطلة وأدى سلوكه إلى سوء العاقبة. وتظهر الدعاوى الباطلة – عادة – من مثل هؤلاء الأشخاص».

أما إذا كان تحرك السالك بخطى الحق وكان باحثا عن الحق، فإن رياضته هذه حقّ شرعية وسيأخذ الله تعالى بيده ويهديه كما تنص على ذلك الآية الشريفة التي تقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...} ([11]). وسيؤول عمله إلى السعادة. فتسقط عنه «الأناء» ويزول عنه الغرور. ومعلوم أن خطوات الشخص الذي يعرض أخلاقه الحسنة وملكاته الفاضلة على الناس ليلفت أنظارهم إليه هي خطوات النفس، وهو متكبر وأناتي ومعجب بنفسه، وعابد لها.

ومع التكبر تكون العبودية □ وهماً ساذجاً، وأمرأً باطلاً ومستحيلاً، وما دامت مملكة وجودكم مملوءة يجب النفس وحب الجاه والجلال والشهرة والترأس على عباد □، فلا يمكن اعتبار ملكاتكم ملكات فاضلة، ولا أخلاقكم أخلاقاً إلهية. فالفاعل في مملكتكم هو الشيطان، وليس ملكوتكم وباطنكم على صورة إنسان. وعند فتح العيون البرزخية، ترون ملكوتكم على غير صورة الإنسان، وإنما هي صورة أحد الشياطين مثلاً. وحصول المعارف الإلهية والتوحيد الكامل أمر مستحيل بالنسبة إلى قلب كهذا ما دام مسكناً للشيطان، وما دام ملكوتكم غير إنساني، وما دامت قلوبكم غير مطهرة من هذه الانحرافات والأنايات.

وفي الحديث القدسي يقول □ تعالى: «لا تسعني أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، بَلْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ» ([12]) ليس موجود يكون آية جمال المحبوب سوى قلب المؤمن. إن المتصرف في قلب المؤمن هو □، لا النفس. الفاعل ي وجوده هو المحبوب، فلا يكون قلب المؤمن متمرداً ولا تائهاً.

«قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْ الرَّحْمَنِ يُقَلَّبُ بِهِ كَيْفَ يَشَاءُ» ([13])

وأنت أيها المسكين العابد للنفس، والذي تركت الشيطان والجهل يتصرفان في قلبك، ومنعت يد الحق أن تتصرف في قلبك، أيّ إيمان لديك حتى تكون محلاً لتجليّ والسلطة المطلقة؟

فاعلم إذاً، أنك ما دمت على هذه الحال، وما دامت رذيلة الغرور موجودة فيك، فأنت كافر با□، معدود من زمرة المنافقين، رغم زعمك بأنك مسلم ومؤمن با□.

الفصل الثاني: خلق □ الإنسان لنفسه سبحانه

أيها العزيز! استيقظ وانتبه وافتح أذنيك، وحرّم نوم الغفلة على عينيك، واعلم أن □ خلقك لنفسه كما يقول في الحديث القدسي:

«يا بن آدم خَلَقْتُ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي» ([14]) واتخذ من قلبك منزلاً له، فأنت وقلبك من النواميس والحرّمات الإلهية، و□ تعالى غيور، فلا تهتك حرّمته وناموسه إلى هذا الحدّ، ولا تدع الأيادي تمتد إلى حرّمه وناموسه. احذر غيرة □، وإلا فضحك في هذا العالم بصورة لا تستطيع إصلاحها مهما حاولت. أتهتك في ملكوتك وفي محضر الملائكة والأنبياء العظام ستر الناموس الإلهي؟ وتقدم الأخلاق الفاضلة التي تخلّص بها الأولياء إلى الحق، إلى غير الحق؟ وتمنح قلبك لخصم الحق؟ وتشرك في باطن ملكوتك؟ كن على حذر من الحق تعالى فإنه مضافاً إلى هتكه سبحانه لناموس مملكتك في

الآخرة - وفضحه لك أمام الأنبياء العظام والملائكة المقربين، سيفضحك في هذا العالم وبيتليك بفضيحة لا يمكن تلافيتها... ويتمزيق عصمة لا يمن ترفيعها.

إن الحق تعالى «ستارٌ» ولكنه غيور أيضا... إنه «أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ولكنه «أَشَدُّ الْمَعَادَاتِ قِيْدًا» أيضا يستمر ما لم يتجاوز الحد. فقد تؤدي هذه الفضيحة الكبرى - لا سمح الله - إلى تغليب الغيرة على الستر، كما سمعت في الحديث الشريف.

فارجع إلى نفسك قليلا، وعد إلى الله، فالرحيم، وهو يبحث عن ذريعة لإفاحة الرحمة عليك. إذا أنبت إليه، فإنه يستر بغفرانه معاصيك وعيوبك الماضية، ولن يطلع عليها أحداً ويجعلك صاحب فضيلة، ويظهر فيك الأخلاق الكريمة، ويجعلك مرآة لصفاته تعالى ويجعل إرادتك فعالة في ذلك العالم كما أن إرادته نافذة في جميع العوالم. كما ورد في حديث منقول: إن أهل الجنة عندما يستقرون في الجنة، تبلغهم رسالة من الحق تعالى خلاصتها: من الحي الأبدي الذي لا يموت، إلى الحي الأبدي الذي لا يموت إذا أردتُ شيئاً قلتُ له كن فيكون، جعلتك هذا اليوم في مستوى إذا أردتُ شيئاً قلتُ كن فيكون.

لا تكن محباً لنفسك، سلّم إرادتك للحق تعالى، فإن الذات المقدسة يتفضل عليك بجعلك مظهراً لإرادته، ويجعلك متصرفاً في كافة الأمور. ويخضع لقدرتك مملكة الإيجاد. وهذا هو غير التفويض الباطل، كما هو معلوم في محله.

فيا أيها العزيز. أنت أعرف بنفسك فاختر إمسا هذا وإمسا ذاك فالغني غنياً وعن كل المخلوقات إنه غنياً عن إخلصنا وإخلص كل الموجودات.

المقام الثالث: الرياء

وفيه فصول

فصل: تلاعب الشيطان مع الناس من خلال المناسك والعبادات

إعلم أن الرياء في هذا المقام، أكثر من المقامات الأخرى وأوسع شيوعاً، إذ أننا نحن العامة من الناس، لسنا على العموم أهلاً لذينك المقامين. ولهذا لا يدخل الشيطان إلينا من ذلك الطريق، ولكن بما أن معظم الناس المتعبددين، هم من أهل المناسك والعبادات الظاهرية، فإن الشيطان أثر حرية في

التلاعب بهم، في هذا المقام ومن خلال العبادات.

كما أن مكائد النفس في هذه المرحلة أكثر. وبتعبير آخر: بما أن عامة الناس؛ يفوزون بالجنة بالأعمال الجسمانية، أنهم يحصلون على الدرجات الأخروية بممارسة الأعمال الحسنة وترك الأعمال السيئة، فإن الشيطان يدخل عليهم من هذا الطريق نفسه، ويسقى جذور الرياء والتعلق في أعمالهم، فتفرّع وتورق، ويبدل حسناتهم سيئات، ويدخلهم جهنم ودركاتها عن طريق المناسك والعبادات، ويحوّل الأمور التي يريدون أن يعمّروا بها آخرتهم إلى أدوات لتخريبها - الآخرة فيجعل الملائكة ما هو - الأعمال - من العليين بأمر من الله في سجين.

فعلى الذين يملكون هذا الجانب فقط، ولا زاد لهم سوى زاد الأعمال، عليهم أن يكونوا حذرين كل الحذر لئلا يفقدوا - لا سمح الله - الزاد والراحلة كليهما، وصبخوا من أهل جهنم، ولا يبقى لهم طريق نحو السعادة، وتغلق في وجوههم أبواب الجنة، وتفتح لهم أبواب النار.

فصل: في دقّة أمر الرياء

كثيراً ما يتفق أن يكون الشخص المرائي نفسه غافلاً أيضاً عن كون الرياء قد تسرب إلى أعماله، وأن أعماله صارت رياء وهباء إذ أن مكائد الشيطان والنفس من الدقة والخفاء، وصراط الإنسانية من الرهافة والظلمة بدرجة لا ينتبه الإنسان إلى ما

هو فيه إن لم يكن حذراً جداً. إنه يحسب أن أعماله الله ولكنها تكون في الواقع للشيطان ولما كان الإنسان مجبولاً على حب النفس، فإن حجاب حب النفس يستر عنه معاييب نفسه، وقد يأتي بيان بعض ذلك ضمن شرح بعض الأحاديث إن شاء الله، ونسأل منه سبحانه التوفيق على ذلك.

ففي دراسة علوم الدين مثلاً - وهي من الطاعات والعبادات المهمة - يبتلي الإنسان الكامل بالرياء من حيث لا يدري وذلك بسبب الحجاب الغليظ لحب النفس.

إن الإنسان يرغب أن يتفرّد في استيعاب معضة علمية وحلّها لدى محضر العلماء والرؤساء والفضلاء، ويبتهج أكثر، كلما كان توضيحه للمسألة العلمية أحسن، ولفت انتباه الحاضرين أكثر. لأنه يحب أن ينتصر على كل من يناظره. إنه يشعر بنوعٍ من الدلال العلمي والتفوق، وإذا اقترن ذلك بتصديق من إحدى الشخصيات، لكان نور على نور. إن هذا المسكين غافل عن أنه أحرز هنا موقعاً لدى الفضلاء والعلماء

ولكنه سقط من عين ربهم ومالك ملوك العالم، وأن عمله قد ترك بأمر الحق المتعال في سجين. ثم إن عمله هذا من الرياء ممزوج بعده معاص أخرى، مثل فضحه وإذلاله وإيذائه أخاً له في الإيمان، وأحياناً التجرؤ على مؤمن وهتكه، وكل واحد من هذه الأعمال هي من الموبقات وكافية وحدها لإدخال الإنسان في جهنم. وإذا أَلقت النفس مرة أخرى شباك كيدها، لتقول لك: إن هدفي هو إعلان الحكم الشرعي وإظهار كلمة الحق وهو من أفضل الطاعات، وليس لإظهار العلم والتكبر وحب الظهور، فاسأل نفسك في الباطن أنه لو كان زميلي المساوي لي في الدرجة العلمية هو الذي قال ذلك الحكم الشرعي وهو الذي حلّ تلك المعضلة وكنت أنت مغلوبة في ذلك المحضر، أكان ذلك على حدٍ سواء عندك؟ إذا كان كذلك فأنت صادق. وإذا لم تترك كيدها وقالت لك: إن إظهار الحق فضيلة، وله ثواب عند الله تعالى، وأنا أريد أن أنال هذه الفضيلة، وأعمّر دار الثواب، فقل لها: لنفرض أن الله تعالى أنعم عليك بتلك الفضيلة نفسها في حالة مغلوبتك وتصديقك بالحق، فهل تبقيين طالبة للغلبة؟ فإذا رجعتم إلى باطنكم ورأيتم أنكم ما زلتُم تميلون الغلبة، والاشتهار بين العلماء بالعلم والفضل، وأن بحثكم العلمي كان لأجل الحصول على

المكانة في قلوب أولئك، إذاً، فاعلموا أنكم مرءون في هذا البحث العلمي الذي هو من أفضل الطاعات والعبادات وأن عملكم هذا - بحسب الرواي الشريف في كتاب (الكافي) هو في «سجين»، وأنكم مشركون بالله. وإن هذا العمل هو لأجل حبّ الجاه والشرف وهما - بحسب الرواية - أشد ضرراً على الإيمان من ذئبين أُطلقا على قطيع بلا راعٍ.

إذاً، فعليكم أنتم أهل العلم المتكفلين بإصلاح الأمة والإرشاد إلى الآخرة الأطبّاء للأمرض النفسية، أن تصلحوا أنفسكم أولاً وتجعلوا مزاجكم النفسي سالماً، كي لا تكونوا في زمرة «العالم بلا عمل» وهو صنف معلوم الحال والعاقبة.

اللهم طهّر قلوبنا من كدر الشرك والنفاق، وصفّ مرآة قلوبنا من صدأ حب الدنيا وهي منشأ جميع هذه الأمور. اللهم رافقنا، وخذ بأيدينا نحن المساكين المبتلين بهوى النفس وحبّ الجاه والشرف في هذا السفر المملوء بالخطر وفي هذا الطريق المليء بالمنعطفات والصعاب والظلمات إنك على كل شيء قدير.

إن صلاة الجماعة واحدة من العبادات العظيمة في الإسلام، وفضل إمامتها أعظم. ومن هنا فإن الشيطان ينفذ إلى هذه العبادة أكثر، وهو مع الإمام أشد عداوة، ويسعى إلى أن ينتزع منه هذه الفضيلة، ويفرغ عمله من الإخلاص، ويدخله إلى «سجين»، ويجعله مشركاً بالله. ولأجل ذلك يدخل الشيطان إلى قلوب بعض أئمة الجماعة بطرق مختلفة مثل: العُجْب (سيأتي بيانه إن شاء الله لا حقا) ومثل: الرياء وهو إظهار هذه العبادة العظيمة، أمام الناس من أجل الحصول على منزلة في قلوب الناس والاشتهار بالعظمة لديهم.

فمثلاً يرى إمام الجماعة أن أحد المشهورين بالتقوى والدين قد حضر إلى صلاة جماعته، ولأجل جذب قلبه، يكثّر من خضوعه ويلتجأ إلى أساليب مختلفة، وحيل كثيرة لصيده، ومن أجل تعظيم نفسه عند الغائبين الذين لم يحضروا صلاة جماعته، يتحدث في المجالس عن ذلك المتديّن، ويحاول إيهام الناس أن فلانا يأتّم به ويشارك في صلاة جماعته. ثم هو أيضاً يقابله بالود والح في قلبه، لأجل حضوره في صلاة جماعته ويُكنّ له من الحب والإخلاص ما لم يُكنّ لحظة طوال حياته، ولا لأولياءه، خصوصاً إذا كان هذا المتدين من التجار المحترمين. وإذا حدث لا سمح الله أن ضلّ أحد الأشراف طريقه والتحق بصلاة الجماعة، فإن المصيبة

على إمام الجماعة من وسوسة الشيطان تكون أعظم. إن الشيطان لا يترك حتى إمام جماعة قليلة الأفراد، فيذهب إليه ويوحى له فيوسوس في نفسه: إنني قد أعرضت عن الدنيا، وأقضيها في مسجد صغير، مع الفقراء والمساكين. وهذا أيضاً مثل ذلك، أو أسوأ منه، لأنه يثقل قلبه برذيلة الحسد أيضاً، فهو فضلاً عن كونه لم ينل من الدنيا شيئاً يسلبه الشيطان عدّته لآخرته، فيخسر الدنيا والآخرة.

وفي الوقت نفسه لم يرفع الشيطان يده عنّا: أنا وأنت نقصر في الحضور في صلاة الجماعة ونحمل الهم والأسى لعدم توفر الظروف والمناخ لإقامة صلاة الجماعة بإمامتنا، فيدفعنا إلى الإساءة إلى جماعة المسلمين والطعن بهم وخلق عيوب للجماعة، ونعد عدم الاشتراك في الجماعة، عزلة، نظهر أنفسنا كأننا زاهدون في الدنيا ومنزّهون عن حب الجاه والذات، في حين أننا أسوأ من كلتا الفئتين السالفتين، فلا نحن نلنا الدنيا الكاملة التي نالتها الطائفة الأولى، ولا دنيا الطائفة الثانية الناقصة. ولا نحن فرنا بالآخرة، مع أننا أيضاً لو أُتيح لنا ما نريد لكننا أشد من كلتا الطائفتين حبا للجاه والمال.

والشيطان لا يكتفي بإمام الجماعة وحده فلا تنطفئ شعله شهوته بجعله - إمام الجماعة - من أهل النار، بل يدخل إلى صفوف المصلّين المؤمنين، فحيث أن فضيلة الصف الأول أعظم من سائر الصفوف، وأنّ جانب يمين الإمام أكثر فضلاً من جانب يساره، فهو يستهدفه أكثر من غيره.

مسكين هذا المتديّن يجره الشيطان من بيته البعيد ويجلسه في الجانب اليمين من الصف الأول، ثم يوسوس له كي يتباهى على الناس بهذه الفضيلة، إذ لا يدري هذا المسكين ماذا يفعل؟ فيأخذ بإظهار فضله بتفاخر ودلال، ويبرز شركة الباطن فيكون مصيره إلى «سجين» ثم يذهب الشيطان إلي باقي الصفوف ويدفعهم إلى نيطعنوا من في الصف الأول بالكتابة والإشارة وأن يجعلوا ذلك المتدين المسكين هدفاً لسهام الطعن والشتيم، معتبرين أنفسهم منزّهين عن مثل أطواره. وأحياناً قد يُرى شخص محترم، خصوصاً إذا كان من أهل الفضل والعلم، قد أخذ الشيطان بيده وأجلسه في الصف الأخير، وكأنه يريد أن يقول للحاضرين: إنني

بمقامي هذا لا ينبغي أن أُصلِّي مع شخص كهذا، ولكن لكوني قد أعرضت عن

الدنيا وليس لدي هوى في النفس، فقد جئت بل وجلست في الصف الأخير ولن ألتقي أشخاصا من هذا القبيل في الصف الأول من صلاة الجماعة.

ولا يكتفي الشيطان بالإمام والمأموم، بل يأخذ بزمام بعض المصلين المنفردين عن الجماعة فيقوده من السوق أو المنزل، بدلال وتبخر، إلى زاوية في المسجد، حيث يفرش سجاده منفردا، دون أن يرى أي إمام عادلا، ويصلِّي في حضور الناس ويطيل السجود والركوع والأذكار الطويلة. هذا الإنسان يضر في باطنه كلمة للناس هي: «إنني متدين ومحتاط إلى درجة أترك صلاة الجماعة لئلا أبتلي بإمام غير عادل» هذا الإنسان، فضلا عن أنه معجب بنفسه ومُراء، فإنه لا يعرف المسائل الشرعية أيضا، وذلك لأن مرجع تقليد هذا الشخص، قد لا يشترط أكثر من مجرد حسن الظاهر في صحة الإقتداء ولكن عمله هذا ليس من هذا الباب، بل من أجل الرياء أمام الناس، ولأجل الحصول على المكانة والمنزلة في القلوب.

وهكذا سائر أعمالنا، فهي تحت تصرف الشيطان الملعون الذي ينزل في كل قلب كدر ملوث، ويحرق الأعمال الظاهرة والباطنة ويجعلنا من أهل النار عن طريق الأعمال الحسنة.

فصل: في الدعوة إلى الإخلاص

إذاً أيها العزيز، كن دقيقا في أعمالك وحاسب نفسك في كل عمل، وأستنطقها عن الدافع في الأعمال الخيرة، والأمور الشريفة، فما الذي يدفعها إلى السؤال عن مسائل صلاة الليل أو على ترديد الأذكار؟ هل تريد تتفهم أحكام صلاة الليل وتعلمها قربة إلى الله، أو تريد أن توحى إلى الناس بأنها من أهل صلاة الليل؟

لماذا تريد أن تخبر الناس بأي أسلوب كان، عن الزيارة للمشاهد المشرفة وحتى عن عدد الزيارات؟

لماذا لا ترضى أن لا يطلع أحد على الصدقات التي تعطيها في الخفاء، وتحاول أن تتحدث عنها ليطلب عليها الناس؟ إذا كان ذلك، وتريد أن يتأسى به الناس باعتبار أن «الدال على الخير كفاعله» فإن إظهار حسن، وأشكر الله على هذا الضمير

النقي والقلب الطاهر!.

ولكن ليكن الإنسان حذر في المناظرة والجدال مع النفس، وأن لا يندفع ب